الدنيا بكاملها أو أكثرها إلى الآخرة كمتاع فالمتاع الأول متعة بعيدة[١] ككل عن الآخرة، والثاني متاع التجارة أن تشترى به الآخرة، والفارق أنه للكافرين ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]: متعة قليلة، وللمؤمنين متاع في الآخرة حسب مساعيهم إن كثيراً فكثير وإن قليلاً فقليل، ومما يقلّل متاع الحياة الدنيا للمؤمنين أن يتثاقلوا عن الجهاد في سبيل الله بأرض المعركة، إلى أرض الحياة تطويلاً لها بزعمهم، أم تطاولاً فيها بمال ومنال! إم أنه قليل بجنب متاع الآخرة وإن كان للمؤمنين الصالحين الذين يشترون به الآخرة، متاع قليل يشترى به متاع كثير وقد يروى عن النبي ﷺ قوله: نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضي ربه، وبئست الدار لمن صدّته عن آخرته وقصرت به عن رضى ربه وإذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصاناً لربه[٣].

(١) ويؤيده ما في الدر المنثور ٣: ٢٣٦ - أخرج الحاكم وصححه عن المستورد قال: كنا عند النبي ﷺ فتذاكروا الدنيا والآخرة فقال بعضهم: إنما الدنيا بلاغ لآلخرة فيها العمل وفيها الصلاة وفيها الزكاة وقالت طائفة منهم: الآخرة فيها الجنة وقالوا ما شاء الله فقال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم فادخل أصبعه فيه فما خرج منه فهي الدنيا، وفيه أخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: إن الله جعل الدنيا قليلاً وما بقي منها إلا القليل كالثقب في الغدير شرب صفوه وبقي كدره. وفيه في وصف الدنيا كأصل عن ابن مسعود أن النبي ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله ﷺ: لو اتخذنا لك فقال: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها، وفيه عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب أخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى، وعن أبي مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول: حلوة الدنيا مرة الآخرة ومرة الدنيا حلوة الآخرة.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٧.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٣٨ عن سعد بن طارق عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: . . . وفيه عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ وغط رجلاً فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس، وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وسنته فإذا خرج من الدنيا فارق السجن والسنة.

ذلك، فما الذي أثقلهم حينذاك عن النفر لقتال الروم؟ إنه شدة الحر، وطيبة ثمار المدينة وقتذاك، وبعد المسافة وشقة الطريق واستعظام الروم، فاثّاقلوا - إذاً - إلى الأرض كأنهم رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، وإنها ثقلة أرض الحياة الدنيا ومطامعها ومطامحها، ثقلة الخوف على حياة وزخرفاتها ولذائذها ومصالحها ومتعها، ثقلة الدعة والأريحية المستقرة المستغرّة، والعبارة تحمل لكل ثقلة كهذه وما أشبه بجرس اللفظ وقرص المعنى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: افتعال الثقل إلى السفل الثفل، رغم الإيمان بالعلو، غلباً لجاذبية الأرض على السماء، وسلباً لرفرفة الأرواح وانطلاقة الأشواق.

فالنفرة للجهاد هي انطلاقه من ثقل الأرض وقيدها، تطلعاً إلى علو السماء عن كيدها وميدها، فما من مؤمن أثاقل إلى الأرض عن نفر الجهاد إلّا وفي إيمانه دخل وخلل، حيث الحياة الإيمانية كلها جهاد، ولقد ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾[1] فما دائكم وما دواءكم؟!

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾:

وهنا تهديد مديد بعد تهديد، متواصلا في آيات عدة ليعدوا للجهاد عدّة وعدّة، فـ ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ للجهاد ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هنا وفي الأخرى، فهنا تقلبون فتغلبون أما أشبه،[2] وهنالك تعذبون، ومما هنا «يستبدل» بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ممن لا يتهاون في الجهاد. ثم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ فإن الله ليس ليغلب في المعارك فإنما أنتم تغلبون ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فـ «انفروا رحمكم الله إلى قتال عدوكم ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٣٩ عن ابن عباس في الآية قال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه فأنزل الله هذه الآية فأمسك عنهم المطر فكان ذلك عذابهم.

بالخسف وتبوءوا بالذل ويكون نصيبكم الأخس، إن أخا الحرب الأرق - لا ينام - ومن نام لم ينم عنه»[١].

وهنا علّ ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ هم المعنيون بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

لقد تعلق بآية الغار هذه متعلقون كثير بين موجبين لفضيلة غالية لـ «صاحبه في الغار» لحدّ يسملون عليه في زيارتهم إياه بـ «السلام عليك يا صاحب الغار» تثبيتاً مبيّتاً لصحبته الوحيدة بين صحابة الرسول ﷺ بذلك النص الجلي والقص العلي، وكأنه هو صاحبه دون من سواه، وآخرين سالبين عنه أية فضيلة مائلين إلى أن آية الغار عار على صاحب الغار دون افتخار، موغلين إياه في الكفار.

ولكلّ - على ضوء المذهبية آراء، علينا أن نرفضها، ثم نقرض على ضوء الآية ما قصه الله، سواء أكان لصاحبه في الغار أم عليه.

ذلك ومن قالات الموجبين ما ينقله صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه ويرد عليه رأساً على عقب[٣]، ومن مقالات السالبين الثالبين المتألبين حضرة

(١) نور الثقلين ٢: ٢١٧ عن نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٣) نور الثقلين ٢: ٢٢٠ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي=

صاحب الغار، أنه حزن في الغار و«أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى

= عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام : يا سعد! وحين ادّعى خصمك أن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أخرج مع نفسه مختار هذه الأمة إلى الغار إلا علمنا منه أن الخلافة له من بعده وانه هو المقلّد أمور التأويل والملقى إليه أزمة الأمة وعليه المعول في لم الشعث وسد الخلل وإقامة الحدود وتسرية الجيوش لفتح بلاد الكفر، فلما أشفق على نبوته اشفق على خلافته وإذ لم يكن من حكم الاستتار والتواري أن يروم الهارب من الشر مساعدة من غيره إلى مكان يستخفي فيه -

وإنما أبات علياً عليه السلام على فراشه لما لم يكترث له ولم يحفل به لاستثقاله إياه وعلمه أنه إن قتل لم يتعذر عليه نصب غيره مكانه للخطوب التي كان يصلح لها! -

فهلا نقضت دعواه بقولك: أليس قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخلافة بعدي ثلاثون سنة، فجعل هذه موقوفة على أعمار الأربعة الذين هم الخلفاء الراشدون في مذهبكم، وكان لا يجد بداً من قوله لك: بلى، قلت له حينئذ : أليس كما علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن الخلافة من بعده لأبي بكر، أنها من بعد أبي بكر لعمر ومن بعد عمر لعثمان ومن بعد عثمان لعلي عليه السلام ، فكان أيضاً لا يجد بداً من قوله لك: نعم - ثم كنت تقول له: فكان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يخرجهم جميعاً على الترتيب إلى الغار ويشفق عليهم كما اشفق على أبي بكر ولا يستخف بقدر هؤلاء الثلاثة بتركه إياهم وتخصيصه أبا بكر وإخراجه مع نفسه دونهم، وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٠ - أخرج ابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وخرج أبو بكر معه لم يأمن على نفسه غيره حتى دخلاً الغار، وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي بكر: أنت صاحبي في الغار وأنت معي على الحوض وفيه عن ابن عباس عن أبي هريرة مثله، وفيه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لحسان: قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال: نعم، قال: قل وأنا أسمع، فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صاعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا ... من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بدت نواجذه ثم قال: صدقت يا حسان، وفيه عن ابن عساكر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال: إلا تنصروه. . . وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما كانت ليلة الغار قال أبو بكر الصديق يا رسول الله صلى الله عليه وآله دعني فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شيء كانت في قبلك؟ قال: أدخل، فدخل أبو بكر فجعل يلمس بيديه فكلما رأى حجراً قال بثوبه فشقه ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع وبقي حجر فوضع عليه عقبه وقال: أدخل فلما أصبح قال له النبي صلى الله عليه وآله فأين ثوبك، فأخبره بالذي صنع فرفع النبي صلى الله عليه وآله يديه وقال: اللّهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة، فأوحى الله إليه أن الله قد استجاب لك. =

رسول الله ﷺ حاله قال له: تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون فأريك جعفر وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون ونظر إلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون فأضمر في تلك الساعة أنه ساحر»[١] وأنه «ما ذكره فيها بخير» حيث تقرء الآية ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[٢] خلاف القراءة المتواترة المثبتة في القرآن.

= وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: أبو بكر أخي وصاحبي في الغار فاعرفوا ذلك له فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، سدوا كلّ خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر.

وفي الدر المنثور ٣: ٢٤١ - أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ضبة بن محصن العبري قال قلت لعمر بن الخطاب أنت خير من أبي بكر؟ فبكى وقال: والله لليلة أبي بكر ويوم خير من عمر، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قال قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما ليلته فلما خرج رسول الله ﷺ هارباً من أهل مكة خرج ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله فقال له رسول الله ﷺ ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال يا رسول الله ﷺ اذكر الرصد فأكون أمامك واذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، قال: فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه فلما رآه أبو بكر قد حفيت حمله على كاهله وجعل يشد به حتى أتى خم الغار فأنزله ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعي فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعلن يضربنه وتلسعه الأفاعي والحيات وجعلت دموعه تنحدر ورسول الله ﷺ يقول له يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته لأبي بكر فهذه ليلته وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ . . .

(١) المصدر في روضة الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار، اسكن فإن الله معنا وقد أخذته . . .

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن عبد الله بن محمد الحجال قال: كنت عند أبي الحسن الثاني عليه السلام ومعي الحسن بن جهم فقال له الحسن: إنهم يحتجون علينا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنِ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وما لهم في ذلك فوالله لقد قال الله: فأنزل الله سكينته على رسوله وما ذكره فيها بخير، قال: قلت له أنا: جعلت فداك وهكذا تقرؤنها؟ قال: هكذا قد قرأتها، وفيه عن الرضا عليه السلام في الآية هكذا نقرأها وهكذا =

وهنا مقالة هي عوان بينهما تجعل كلا من هذين الفرقدين علياً عليه السلام وأبا بكر في مكانته اللائقة به[١] تفضيلاً فضيلاً لفرقد الفراش على صاحب

= تنزيلها، أقول: هكذا قد قرأتها يلمح بأنه قراءة التفسير لا التنزيل، وأما «هكذا نقرأها» فقد تكون مبدلة عن الأولى، أم كذلك يعني نقرأها تفسيراً وهكذا تنزيلها تفسيراً لا أصلاً لفظياً، وإلا فتطرح لمخالفتها لنص القرآن.

وفي البحار ١٩: ٥٥ عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار فقال عبد الله بن شداد بن الهاد وأين أنت من علي بن أبي طالب حيث نام في مكانه وهو يرى انه يقتل فسكتت ولم تحر جواباً، وفيه (٨٠) قال زرارة قال أبو جعفر عليه السلام: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٦] ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠] فقال: هو الكلام الذي يتكلم به عتيق، رواه الحلبي عنه.

(١) البحار ١٩: ٨٠ عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام إن الله تعالى أوحى إلى النبي يا محمد صلى الله عليه وآله إن العلى الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك: إن أبا جهل والملأ من قريش قد دبروا يريدون قتلك وآمرك أن تبيت علياً في موضعك وقال لك: إن منزلته منزلة إسماعيل الذبيح من إبراهيم الخليل يجعل نفسه لنفسك فداء وروحه لروحك وقاء -

وآمرك أن تتصحب أبا بكر فإنه إن آنسك وساعدك ووازرك وثبت على ما يعاهدك ويعاقدك كان في الجنة من رفقائك وفي غرفاتها من خلصائك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام أرضيت أن أطلب فلا أوجد وتوجد فلعله أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك؟ قال: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله رضيت أن يكون روحي ونفسي فداء لأخ لك أو قريب.. وهل أحب الحياة إلا لخدمتك والتصرف بين أمرك ونهيك ولمحبة أوليائك ونصرة أصفيائك ومجاهدة أعدائك، لولا ذلك لما أحببت أن أعيش في هذه الدنيا ساعة واحدة فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على علي عليه السلام فقال له: يا أبا الحسن قد قرأ علي كلامك هذا الموكلون باللوح المحفوظ وقرأوا علي ما أعد الله لك من ثوابه في دار القرار ما لم يسمع بمثله السامعون ولا رأى مثله الراءون ولا خطر مثله ببال المتفكرين -

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي بكر: أرضيت أن تكون معي يا أبا بكر تطلب كما أطلب وتعرف بأنك تحملني على ما أدعيه فتحمل عني أنواع العذاب؟ قال أبو بكر: يا رسول الله أما أنا لو عشت عمر الدنيا أعذب في جميعها أشد عذاب لا ينزل علي موت مريح ولا منهج متيح وكان ذلك في محبتك لكان ذلك أحب إلي من أن أتنعم فيها وأنا مالك لجميع ممالك ملوكها في مخالفتك وهل أنا ومالي وولدي إلا فداءك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا جرم إن اطلع الله على قلبك ووجد ما فيه موافقاً لما جرى على لسانك جعلك بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد ومنزلة الروح من البدن كعلي الذين هو مني كذلك وعلي فوق ذلك لزيادة فضائله =

الغار ولا يظلمون فتيلاً، فإلى تحقيق الحق المعني من آية الغار بكل تجرد وحرية، وكما يستفاد من نفس الآية دون وصيل ودخيل من رؤية مذهبية أم رواية لا تتحملها الآية:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أنتم المنافقون وسائر ضعفاء الإيمان، في خصوص الاستنفار لحرب الروم، أم وفي عامة المجالات على مدار الزمن الرسالي الإسلامي، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ...﴾ ومن هنا المحصور الأصيل في مسرح النصرة الربانية هو الرسول ﷺ مهما لزق به لازق وصحبه صاحب ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ماضياً هو مستمر على طول الرسالة، نصرة حقة حقيقية منقطعة النظير، اللّهم إلّا ما كان للرسولين موسى وعيسى، ولكن موسى كان وليداً نجّاه الله عن أليمّ بيد عدوه، والمسيح عليه السلام رفع إلى السماء، وأما محمد ﷺ فقد هاجر إلى تأسيس دولة الإسلام عالية مرفرفة الأعلام حتى فتح مكة المكرمة.

﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حيث عزموا على قتله فخرج أمامهم ولم يبصروه بما نصره الله، فهو المنصور المخرج بهذه الخارقة الربانية دون سواه، وهو ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ولماذا ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ دون «أول اثنين» وهو أوّل في الفضيلة، أول في الهجرة، وأول في كل منقبة؟!.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال من ذلك المنصور المهجّر المهجور ﷺ وصاحبه

= وشرف خصائله، يا أبا بكر إن من عاهد ثم لم ينكث ولم يغير ولم يبدل ولم يحسد من قد أبانه الله بالتفصيل فهو معنا في الرفيق الأعلى، وإذا أنت مضيت على طريقة يحبها منك ربك ولم تتبعها بما يسخط ووافيته بها إذا بعثك بين يديه كنت لولاية الله مستحقاً ولمرافقتنا في تلك الجنان مستوجباً... ثم قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يا علي أنت مني بمنزلة السمع والبصر والرأس من الجسد والروح من البدن، حببت إلي كالماء البارد إلى ذي الغلة الصادي ثم قال له: يا با حسن تغش ببردتي...

هنا وهو الأول علّه لأن أبا بكر دخل الغار قبله إذ كان في موقف حراسته، بمراس دائب هو بطبيعة حاله يقدمه في موقف الغار، ليفتش داخل الغار وليدافع عنه هجمة، وينظر له إلى أية بادرة ظاهرة على باب الغار، أم لأمر آخر، ومهما يكن من أمر فـ ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ هنا هو الرسول ﷺ حيث هو المنصور المخرج دون صاحبه، إذا فالاحتجاج بـ ﴿ثَانِيَ﴾ هنا أن أبا بكر هو ثاني الرسول اعوجاج في الاحتجاج هو قضية التعمية المذهبية المتعصبة لصاحبه في الغار[1]، ثم ولا يعنى ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أحدهما، فإن عبارته عبارته كـ: أحد اثنين وما أشبه، فإنما رتب دخولهما في الغار زمناً فالأول هو الحارس الداخل أولاً والثاني هو المحروس الداخل ثانياً.

وهنا فرقدان اثنان يصاحبان الرسول ﷺ فرقد الليل ينام على فراشه استعداداً للقتل بديله حيث الخطر هاجم، وفرقد النهار بليالي وأنها حيث

(١) بحار الأنوار ١٩: ٩٣: إن الطبري في تاريخه ٢: ١٠٠ وأحمد بن حنبل رويا في كتابيهما أن هذا الرجل المشار إليه ما كان عارفاً بتوجه النبي ﷺ وأنه جاء إلى مولانا علي عليه السلام فسأله عنه فأخبره انه توجه فتبعه بعد توجهه حتى ظفر به وتأذى رسول الله ﷺ بالخوف منه لما تبعه وعثر بحجر فلق قدمه، قال الطبري في تاريخه: فخرج أبو بكر مسرعاً ولحق نبي الله ﷺ في الطريق فسمع جرس أبي بكر في ظلمة الليل فحسبه من المشركين فأسرع رسول الله ﷺ يمشي فقطع قبال نعله فغلق إبهامه حجر وكثر دمها فأسرع المشي فخاف أبو بكر أن يشق على رسول الله ﷺ حين أتاه فانطلقا ورجل رسول الله ﷺ تسيل دماً حتى انتهى إلى الغار مع الصبح فدخلاه وأصبح الذين كانوا يرصدون رسول الله ﷺ فدخلوا الدار..
وفي الدر المنثور ٣: ٢٤٠ - أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من الليل لحق بغار ثور، قال: وتبعه أبو بكر فلما سمع رسول الله ﷺ حسه خلقه خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار فأصبحت قريش في طلبه.
وفي تفسير البرهان ٣: ١٢٧ - ابن طاوس في طرائفه قال: ومن طريق العامة ما ذكره أبو هاشم بن الصباغ في كتاب النور والبرهان يرفعه إلى محمد بن إسحاق قال قال حنان: قدمت مكة معقراً وأناس من قريش يقدمون أصحاب رسول الله ﷺ فقال ما هذا لفظه: فأمر رسول الله ﷺ علياً فنام على فراشه وخشي من أبي بكر أن يدلهم عليه فأخذه معه إلى الغار،

الخطر ناجم، وبوادر الأمن وكوادره قائمة بخوارق العادة بل لا حزن ولا خوف فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وعداً منه مفعولاً للحفاظ عليه ﷺ وعلى صاحبه في الغار، فلماذا - إذاً - يحزن هو أو يحزن صاحبه، اللّهم إلا ريبة في تحقيق وعد الله!.

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وأما كون ثاني اثنين في الغار فبما أخرجه الذين كفروا، فما الذي أدخل - إذاً - صاحبه في الغار؟ النص ساكت، والأثر المنقول عن أصحاب له ناطق بأنه اتجه إلى الغار بعد الرسول ﷺ حيث سأل عنه علياً عليه السلام أم سواه فأخبره أنه توجه ففوجأ النبي ﷺ بدهشة اتجاهه إلى الغار[1]، فأصبح علّه حارساً حيث اعتبر أولاً في الغار، أم قدّمه إلى الغار احتياطاً على نفسه لكيلا يبقى خارج الغار فيستخبر فيخبر بخبره ﷺ خوفة من المشركين وكما يروى[2].

ومهما يكن من شيء فالنص لا يشير إلى إيجابية الدعوة أم سلبيتها لصاحب الغار أن يصاحب الرسول ﷺ إلا إلى أصل كونهما في الغار، اعتباراً أن الرسول ﷺ هو الأصل في ذلك المضمار، وصاحبه في الغار

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) في تفسير الفخر الرازي ١٦: ٦٤: أنه تعالى سماه ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] فجعله ثاني محمد ﷺ حال كونهما في الغار والعلماء أثبتوا أنه كان ثاني محمد في أكثر المناصب الدينية - ثم أطال بقوله: - فإنه أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن أبو بكر.. فهو ثاني اثنين في الدعوة إلى الله، وأيضاً كلما وقف رسول الله ﷺ في غزوة كان أبو بكر يقف في حذمته ولا يفارقه فكان ثاني اثنين في مجلسه، ولما مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة الناس في الصلاة فكان ثاني اثنين، ولما توفي دفن بجنبه فكان ثاني اثنين هناك أيضاً، أقول وقد غفل الرازي الراضي عن اجتهاده الاضطهاد عن أن ثاني اثنين هو الرسول دون صاحبه فأين المقام الثاني لصاحبه اللّهم إلا له ﷺ وهل يرضى الأولية - إذاً - لصاحبه وهو ثانية؟! ثم ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ [التوبة: ٤٠] من هو القائل لصاحبه إلا ثاني اثنين، فإذا كان هو أبا بكر فهو القائل لصاحبه الرسول ﷺ - إذاً - لا تحزن.. فتنقلب الآية بأسرها محولة لسرد فضيلة غالية لأبي بكر والرسول ﷺ على هامشه!.

علّه إنما صاحبه مصلحية الحفاظ عليه ﷺ ولكن بأي وجه؟ لا ندري! أم صاحبه لعناية أخرى؟ كالحفاظ على نفسه لما يجد الرسول ﷺ ملاحقاً.

ثم وكيف لزمه النبي ﷺ إلى الغار ولم يتركه؟ علّه خوفاً أن يلزمه المشركون فيستخبروه فيخبرهم لضعفه وقوتهم كما يروى[١]، أم لشغفه البالغ في الهجرة وكما تطلبها منه ﷺ مراراً وتكراراً فراراً عن بأس المشركين وعبء المقام بمكة تحملاً لتوارد المضايقات، فيقول له ﷺ لا تعجل[٢]

(١) كما ذكره الطبري في حديث الهجرة بقوله: وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل (تاريخ الطبري ٢: ٩٧).

(٢) وفي تفسير البرهان ٢: ١٢٦ روى الحسين بن حمدان الخصيبي بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن أبيه محمد بن علي الباقر عن أبيه علي بن الحسين عليهم السلام قال: لما لقنه جابر بن عبد الله الأنصاري رسالة جده رسول الله ﷺ إلى ابنه الباقر عليه السلام قال له علي بن الحسين يا جابر أكنت شاهداً حديث جدي رسول الله ﷺ يوم الغار؟ قال: لا يا ابن رسول الله ﷺ قال: إذا أخذتك يا جابر، قال: حدثني جعلت فداك فقد سمعته من جدك فقال: إن رسول الله ﷺ لما هرب إلى الغار من مشتركي قريش حيث كبسوا داره لقتله وقالوا: اقصدوا فراشه حتى نقتله فيه فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام إن مشركي قريش يكبسونني في هذه الليلة ويقصدون فراشي فما أنت صانع يا علي؟ قال له أمير المؤمنين عليه السلام: أنا يا رسول الله ﷺ اضطجع في فراشك واخرج واستصحب الله حيث تأمن على نفسك فقال له رسول الله ﷺ: فديتك يا أبا الحسن أخرج لي ناقتي العضباء حتى أركبها وأخرج إلى الله هارباً من مشركي قريش وافعل بنفسك ما تشاء والله خليفتي عليك فخرج رسول الله ﷺ وركب الناقة وتلقاه جبرئيل فقال يا رسول الله ﷺ أمرني الله ربي أن أكون صاحبك في مضربك وفي الغار الذي تدخله ان تنيخ ناقتك إلى باب أبي أيوب الأنصاري فسار ﷺ فتلقاه أبو بكر فقال يا رسول الله ﷺ أصحبك؟ ويحك يا أبا بكر ما أريد أن يشعر بي أحد، قال: فأخشى يا رسول الله ﷺ أن تستحلفني المشركون على لقائي إياك ولا أجد بداً من صدقهم، فقال له: ويحك يا أبا بكر أو كنت فاعلاً ذلك؟ فقال: أي والله لئلا أقتل أو أحلف فأحنث، فقال: ويحك يا أبا بكر فما صحبتي ليلتي بنافعتك، فقال له أبو بكر: ولكنك تستغشني أن أنذر به المشركين، فقال له: سر إذا شئت فتلقاه الغار فنزل عن ناقته العضباء وأبركها بباب الغار ودخل ومعه جبرئيل وأبو بكر وقامت خديجة في جانب الدار باكية على رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وانضجاعه على فراش رسول الله ﷺ ليفد به بنفسه ووافى المشركون الدار ليلاً فتسوروا عليه ودخلوا قصداً إلى فراش رسول الله ﷺ =